المحاضرة الثامنة

السرد على لسان الحيوان

كتاب كليلة ودمنة "هو مجمع حكمة ولهجة

اختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه"

ابن المقفع.

السرد على لسان الحيوان هو سرد رمزي له غايات ومقاصد، كما أنه سرد مؤطر بالخرافة، والعجائبية، كل هذا قصد استمالة المتلقي وحصره بين المألوف واللامألوف، وهو سرد موجه للعامة والخاصة معا، يقول غنيمي هلال: "الحكاية على لسان الحيوان، حكاية ذات طابع خلقي وتعليمي في قالبها الأدبي الخاص بها، وهي تنحو منحى الرمز في معناه اللغوي العام، لا في معناه المذهبي... وغالبا ما تحكى على لسان الحيوان أو النبات أو الجماد..."[1]. وتكون الحكايات على لسان الحيوان لغايات اجتماعية، شأن (كليلة ودمنة) أو لغايات مذهبية شأن (منطق الطير) لفريد الدين العطار حيث يتجلى (البعد الصوفي) فيها بامتياز.

أولا. نشأة السرد على لسان الحيوان:

اختلف الباحثون حول جذور ومنشأ أدب التحدث على لسان الحيوان فمنهم من يرد ذلك إلى اليونان ومنهم من يرى أن المصريين لهم فضل السبق، في حين يرجح بعضهم ارتباط هذا النص بالهنود والفرس. والأكيد أن هذا الفن ارتبط بالحضارات القديمة (اليونانية، الرومانية، الهندية، الفارسية...) وإن كنا نرجح القول الذي يذهب إلى أن الهنود لهم فضل السبق لأن "الهنود يؤمنون بفكرة تناسخ الأرواح، فلا غرابة في أن يُبعث الإنسان متقمصا بشخصية حيوان أو طائر أو يتحدث بلسانه"[2].

ويشير "بديع محمد جمعة" إلى ثلاث كتب هندية قديمة ألفت على لسان الحيوان وهي كتاب: "جاكاتا" وفيه حديث عن تناسخ (بوذا) –مؤسس الديانة البوذية– في أنواع الموجودات،

[1] محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، 1983، ص179-180.

[2] بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1980، ص170.

وكتاب (تانتراخيابيكا) وكتاب (بنبج تانترا) وهي مؤلفات تعود إلى الفترة التي تحصر بين القرن السابع والقرن الثاني قبل الميلاد[1].

لكن ثمة رأي آخر جدير بالطرح إذ يعيد عبد السلام كفافي[2] جذور هذا الفن إلى الأدب اليوناني (أيسوب) الذي تنسب إليه مجموعة من القصص على لسان الحيوان والتي تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد، وقصصه أثرت في أدباء القرون الوسطى، وتجليات ذلك تظهر في (قصة الثعلب) في الأدب الفرنسي الوسيط، وهي قصة مجهولة المؤلف يرجح كفافي أنها نظمت بين عامي 1175–1205م، وتمتاز هذه المجموعة القصصية بـ"البراعة القصصية، والمحافظة على صفات الحيوان في القصص، مما يبقي على طابعها الرمزي، يضاف إلى ذلك أنه أرق فكاهة وألطف نقدًا"[3].

ولا تعارض بين الرأيين، فإذا كان للهنود فضل السبق وتأليف كتاب بنبج تانترا، الكتاب الذي انتقل بعد ذلك إلى الفارسية، ومنه إلى العربية، ثم تأثير النسخة العربية كليلة ودمنة لابن المقفع في الآداب الفارسية واللاتينية القديمة، وكذا تأثير قصة الثعلب في آداب القرون الوسطى. كان الأثرين الهندي واليوناني يلتقيان عند الأديب الفرنسي لافونتين (ت1688م) الذي يصرح بتأثره بكتاب كليلة ودمنة، يقول لافونتين في مقدمة الجزء الثاني من حكاياته وأمثاله: "ليس من الضروري فيما أرى، أن أذكر المصادر التي أخذت منها هذه الحكايات الأخيرة، غير أني مدين في أكثرها إلى الحكيم الهندي (بيدبا) الذي ترجم كتابه إلى اللغات"[4]. ثم انتقل الأثر من لافونتين إلى الأدب العربي الحديث، بعدما ترجم محمد عثمان جلال (ت1898م) حكايات لافونتين إلى العربية وسماها "العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ" كما قام الأب "نقولا أبو حنا المخلصي" بترجمة أمثال لافونتين نظما سنة 1934، ومن الشعراء

---

[1] ينظر، المرجع السابق، ص159–170

[2] محمد عبد السلام كفافي، في الأدب المقارن، دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص248.

[3] المرجع نفسه، ص250.

[4] بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ص205.

العرب الذين تأثروا بأمثال لافونتين "أمير الشعراء أحمد شوقي، خاصة في الجزء الرابع من ديوانه الشوقيات"[1].

ثانيا. قصة كتاب كليلة ودمنة:

ثمة مساران لقصة هذا الكتاب:

المسار الأول: اللغة السنسكريتية (الهندية القديمة) ← اللغة البهلوية (الفارسية القديمة) ← اللغة العربية.

المسار الثاني: من اللغة العربية (ابن المقفع) ← اللغة الفارسية (الإسلامية) ← إلى اللغات العالمية (السريانية، اليونانية، العبرية، اللاتينية).

فنقطة انطلاق قصة هذا الكتاب تبدأ مع اللغة السنسكريتية (الهندية القديمة)، يذكر المؤرخون أن (دبشليم) ملك الهند أمر الفيلسوف (بيديا) أن يضع له كتابا يخلد اسمه... فظل (بيديا) يكتب طوال عام كامل، حتى أخرج الكتاب في غاية الدقة والإتقان، ورتب فيه خمسة عشر بابا... ولما قدمه إلى الملك أعجب به هذا الأخير، وطلب من بيديا ما يريد من مكافأة، فما كان من هذا الأخير إلا أن طلب وضع الكتاب في خزانة الملك حتى لا يصل خبره إلى ملوك الفرس، لكن حدث ما كان يخشاه بيديا، فقد وصل الكتاب إلى اللغة الفارسية البهلوية فملك الفرس "أنوشيروان الساساني" لما سمع بخبر هذا الكتاب، أمر وزيره "بوزر جمهر" أن يبحث عن حكيم يحسن اللغتين البهلوية والسنسكريتية حتى يستطيع ترجمته وأخيرًا وجدوا ضالتهم في الطبيب (برزويه) فكلفاه بالذهاب متخفيا إلى الهند، والحصول على الكتاب بأي طريقة وترجمته إلى البهلوية... واختلفت روايات وصول (برزويه) إلى كتاب كليلة ودمنة، من هذه الروايات الأقرب إلى المنطق أن هذا الأخير استأذن الملك في نسخ الكتاب لكنه رفض وسمح له بالإطلاع عليه فقط، فكان يقرأ منه كل يوم وليلة ما يتمكن من حفظه، ثم يعود إلى داره لينقل ذلك إلى اللغة البهلوية، وهكذا تم نقل الكتاب، وعاد إلى بلده وقدمه إلى الملك "أنوشروان" فأكرم الملك مقدمه، واشترط أن يضاف إلى الكتاب بابا يتحدث عن ذهاب (برزويه) إلى بلاد الهند ليظل اسمه مقترنا بهذا العمل الكبير فقبل الملك.

[1] ينظر، المرجع السابق، ص205 إلى 210.

ثم انتقل هذا الكتاب من الفارسية إلى اللغة العربية بعدما أقدم ابن المقفع المتقن للغتين (البهلوية والعربية) على ترجمته إلى اللغة العربية وتم ذلك سنة (133هـ).

وبعد الترجمة بدأ المسار الثاني، أي انتقال الكتاب من اللغة العربية إلى اللغات العالمية الأخرى، خاصة بعد ضياع الأصل السنسكريستي (الهندي)، وضياع الترجمة البهلوية (الفارسية القديمة)، وفقدان الترجمة السريانية، هكذا أصبحت ترجمة ابن المقفع هي الأصل لكل الترجمات[1] الموجودة حاليا، كما هو مبين في هذه الخطاطة.

[1] للتوسع في قصة هذا الكتاب يرجى العودة إلى كتاب:
- أمين عبد الحميد بدوي، القصة في الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، 1981، ص301 إلى ص327.
- أو كتاب: بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، من ص170 إلى 203.

ثالثا. مسارات كتاب كليلة ودمنة:

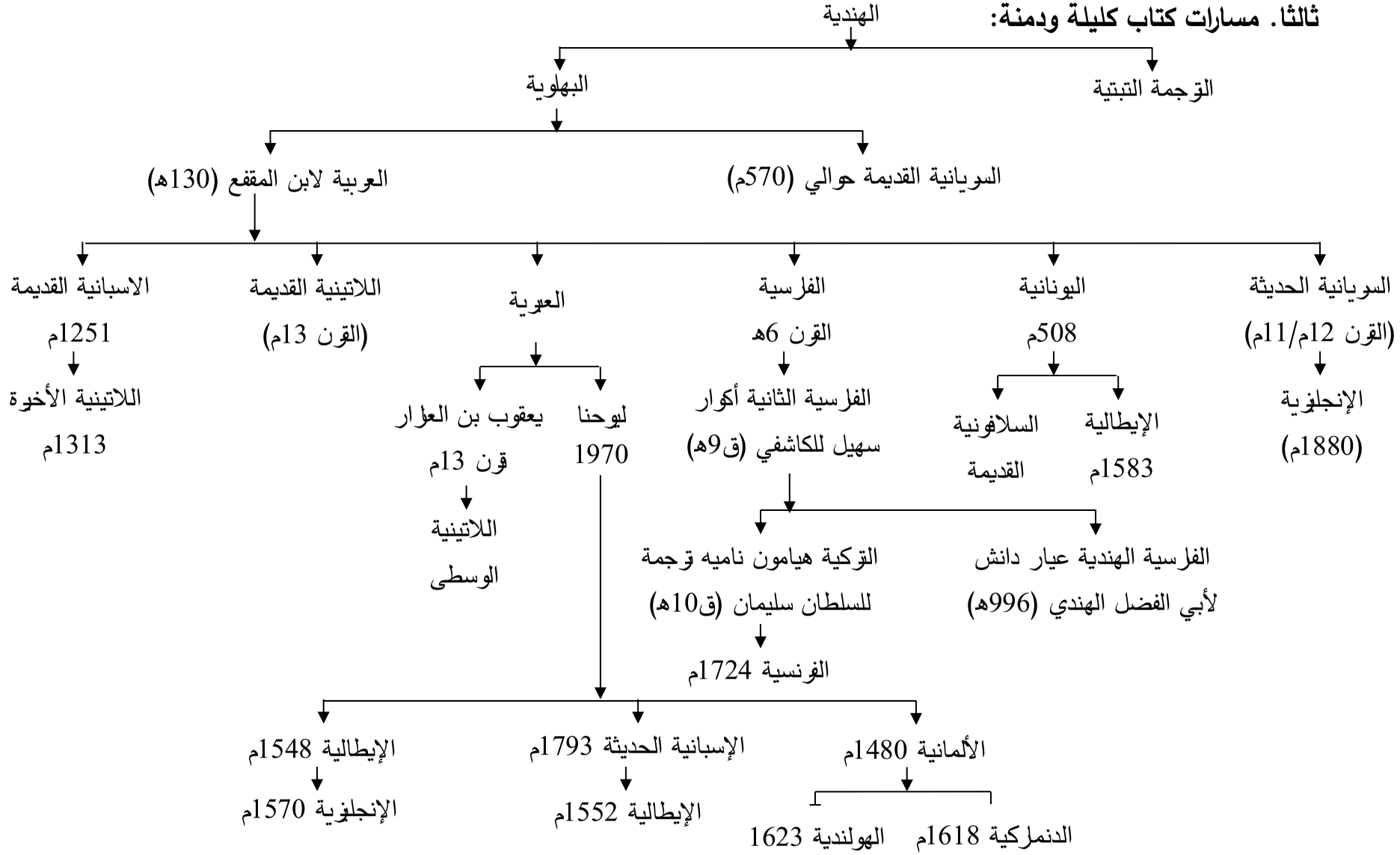

هذا التشجير مأخوذ من كتاب: دراسات في الأدب المقارن، بديع جمعة، ص176

وهذا نص مقتطف من الخطاب المقدماتي لكتاب كليلة ودمنة يفصح فيه ابن المقفع عن مسائل مهمة، يقول: "هذا الكتاب (كليلة ودمنة) وهو مما وضعته علماء الهند، من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا... وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير، فاجتمع لهم بذلك خلال أمامهم فوجدوا منصرفا في القول وشعابا يأخذون منها، وأما هو فجمع حكمة ولهوًا فاختاره الحكماء لحكمته والسفهاء للهوه..." [1] يفصح ابن المقفع في هذا المقطع عن الجذور الهندية لهذا الكتاب، كما يشيد بقيمة مضامينه وما احتواه من حكم نادرة وأمثال سائرة... كما تحدث عن شريحتين من المتلقين لهذا الكتاب هما: طبقة الحكماء (الفلاسفة) وطبقة السوقة وعامة الناس لما فيه من لهو وترف.

ويختتم خطابه المقدماتي بالحديث عن أغراض الكتاب، فيقول: "وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض أحدهما ما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة ليسارع لقراءته أهل الهزل من الشبان، تستمال به قلوبهم، والثاني إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الأصباغ والألوان ليكون أنسا لقلوب الملوك، والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة فيكثر بذلك استنساخه ولا يبطل، والرابع وهو الأقصى، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة"[2].

وثمة غرض آخر لم يفصح عنه ابن المقفع، وإنما استخلصه أحمد أمين[3] من دراساته للأنساق الثقافية والتاريخية التي ترجم لها الكتاب، وهي أن ابن المقفع المعاصر للخليفة العباسي المنصور، أراد أن يقدم النصح لهذا الأخير لكنه خشي على نفسه فلجأ إلى الرمز على لسان الحيوانات... لكن المنصور بعدما اطلع على الكتاب أدرك مراد ابن المقفع، فأغرى به حتى قُتل بتهمة الزندقة في عام (142هـ)[4].

ويعد كتاب كليلة ودمنة في نسخته العربية التي كتبها ابن المقفع فاتحة الكتابة على ألسنة الحيوان في الأدب العربي القديم، فمن الأدباء من أعاد إخراج كتاب كليلة ودمنة شعرًا

---

[1] ابن المقفع، كليلة ودمنة، موفم للنشر، 1993، ص56-57.

[2] أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، ج1، ص219.

[3] يقال إن اسم الكتاب في السنسكريتية (الهندية) (كرنكا ودمنكا) وفي البهلوية (الفارسية) (كليلكا ودمنكا).

[4] ينظر، بديع محمد جمعة، دراسات في الأدب المقارن، ص186.

تسهيلاً لحفظه شأن الشاعر "إبان بن عبد الحميد اللاحقى" شاعر البرامكة... لكن هذه المنظومة ضاعت، ومن الكتب التي ألّفت على لسان الحيوانات وتشبه كليلة ودمنة كتاب (السد والغواص) وهو مجهول المؤلف، كتب حوالي سنة (530هـ)، ونشر في بيروت سنة 1978م، وبينه وبين كتاب كليلة ودمنة تشابه كبير، ومن أهم مظاهر التشابه بينهما: "تقديم النصح للملك عن طريق الحيوانات كما أن الملك في كلا الكتابين هو الأسد، أما الغواص فهو الثعلب الذي يحاول تقديم النصح، في حين قام بهذا الدور (دمنة) في كتاب ابن المقفع، ودمنة يمثله (ابن آوى) وليس الثعلب"[1] مما يؤكد تأثر كتاب (الأسد والغواص) بكتاب (كليلة ودمنة).

رابعا. السمات السردية في القصص على لسان الحيوان:

القصص على لسان الحيوان الذي شاع عند الأمم قديما (اليونان أو الرومان أو الهنود أو الغرب والعرب) أو حديثا (لافونتين، محمد عثمان هلال، أحمد شوقي) يملك سمات سردية مشتركة يمكن أن نجملها في نقاط مركزة، هي:

1- الرمز اللغوي:

يجعل القاص لحكاياته على لسان الحيوان شخصيات رمزية من عالم الحيوان، فتتماهى الشخصيات الخيالية مع الشخصيات الواقعية، فالحيوانات المرموز بها تشير على شخصيات واقعية، فهي "كالقناع الشفاف" تتراءى من ورائه الشخصيات المقصودة.

2- الاعتدال في التوصيف (التصوير الفني):

ينبغي للقاص أن يسلك المسلك الوسيط في وصفه للشخصيات الخيالية (الحيوانات) والشخصيات الواقعية، يقول غنيمي هلال: "فلا ينبغي أن يسترسل في وصف الشخصيات الرمزية من الحيوانات حتى يُنسي للقارئ صفات الشخصيات المرموز إليهم من الناس ولا أن ينسى الرموز فيتحدث عن الشخصيات المرموز إليهم حتى يغفل القارئ عن هذه الرموز التي هي وسائل الإثارة الفنية"[2].

3- البعد الأخلاقي:

---

[1] ينظر، المرجع السابق، ص192.

[2] غنيمي هلال، الأدب المقارن، ص189.

الحكايات على لسان الحيوان لها مقصد عام وهو البعد الأخلاقي التعليمي فيرى لافونتين "أن الحكاية الخلقية على لسان الحيوان ذات جزأين، يمكن تسمية أحدهما جسما والآخر روحا، فالجسم هو الحكاية والروح هو المعنى الخلقي"[1]. كلما كان وصف الشخصيات الرمزية دقيقا، كلما كان البعد الأخلاقي جليا.

وأخيرًا نتمنى أن يكون هذا التأطير النظري للسرد على لسان الحيوان محفز ودافع قوي لطلبتنا قصد قراءة كتاب كليلة ودمنة والتمتع به والعمل بخلقه وأخلاقه، وهذا نص مقتبس منه للتطبيق.

خامسا. للتطبيق:

نموذج من كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع:

من باب الأسد والثور

وكان هذا الأسد منفردًا برأيه، دون أخذ برأي أحد من أصحابه، فلما سمع خوار الثور خامره منه هيبة وخشية،، وكره أن يشعر بذلك جنده فكان لا يبرح ولا ينشط، يل يؤتى برزقه كل يوم على يد جنده.

وكان في من معه من السباع ابن آوى يقال لأحدها (كليلة) والآخر (دمنة) وكانا ذوي دهاء وعلم وأدب، فقال (دمنة) يوما لأخيه (كليلة): يا أخي ما شأن الأب مقيما مكانه لا يبرح ولا ينشط، خلافا لعادته، فقال له كليلة: ما شأنك أنت والمسألة في هذا؟ نحن على باب ملكنا آخذين بما أحبَ وتاركين ما يكره، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم، فأمسك عن هذا واعلم أنه من تكلف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب القِردَ من النجار. قال دمنة: وكيف كان ذلك...

قال كليلة: زعموا أن قردًا رأى نجارًا يشقُ خشبة وهو راكب عليها، وكلما شق منها ذراعا، أدخل فيه وتدًا، فوقف ينظر إليه وقد أعجبه ذلك، ثم إن النجار ذهب لبعض شأنه، فقام القرد وتكلف ما ليس من شأنه، فركب الخشبة وفعل وجهه قبل الوتد وظهره قبل طرف الخشبة فتدلى ذنبه في الشق، ونزع الوتد فلزم الشق عليه، فكاد يغشى من الألم، ثم إن النجار وافاه

[1] المرجع نفسه، ص190.

فأصابه على تلك الحالة فأقبل عليه يضربه، فكان ما لقى من النجار أشد مما أصابه من الخشبة.

قال دمنة: قد سمعتُ ما ذكرت، وليس كل من يدنو من الملوك يقدر على صحبتهم ويفوز بقربهم، ولكن اعلم أن كل من يدنو منهم ليس يدنو منهم لبطنه، فإن البطن يُحشى بكل شيء، وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو.

ابن المقفع، كليلة ودمنة، موفم للنشر، 1993، ص80-81. (بتصرف)

المطلوب: البحث في السمات السردية لهذا المقطع من كتاب كليلة ودمنة.